

الإثني 24-12-2007

115- تهبش "الجسد" على الناهيتين

في يومية أمس، ومن بين الأربعين مفتاحا التي قدمت لفتح الأبواب إلى السر الآخر تصورت أن أحد من انبهر ببذعة السر الأول (بتاع المليون دولار) وقانون الجذب، سوف ينتظر مني أن أقدم تعريفا لكل مفتاح على الأقل، ومعه دليل الاستعمال، طبعاً لن أفعل، ولا أنا أستطيع، ولا أنتم ترضون، إن كل ما يمكن تقديمه، ما دام السر الخاص بنا هو أن نعرف كيف "نعيش بشراً"، هو محاولة أن نحسن التعرف على ماهية البشر، وكيف ننمي ما هو "بشر فينا" كما خلقنا الله.

ومن هنا يلزم توضيح ماهية هذا السر الآخر ونحن نعد من يحسن استعمال المفاتيح إليه أنه سيجد به ضالته.

المفروض أن هذه المفاتيح تفتح الأبواب إلى حقيقة إمكانية أى إنسان أن يكون كذلك (إنسانا كما خلقه الله)

يعنى ماذا؟

يعنى:

"أنت تستطيع أن تعيش بشراً،
أن تقرر أن تحيا إنسانا بعمق هذه اللحظة المتكررة
(هنا والآن- لا يوجد غيرها).
بشراً جميلاً رائعاً كما خلقك الله.
برغم كل ما يجرى فيك وحولك،
وبرغم كل ما تتصوره عنك وعنهم،
دون أن تتخلى عن مسئوليتك، أو تنسى الناس، أو مصيبتك،
ودون أن تلغى أملك
أو تتنكر لفرحتك
هيا الآن"

لكن لا يتوقع أحد- مثلما يجرى في ما يسمى التنمية البشرية، أو مثل تعليمات قانون الجذب في بذعة السر الأول- لا يتوقع أحد أننا سوف نقدم تعليمات محددة تجعلك تمتلك هذا الكنز الثمين بمجرد أن تؤديها

كل ما أستطيع أن أقدمه شخصياً هو أن أجمع من أوراقي وخبرتي ما أنار لي طريقى حتى عثرت على بعض هذه المفاتيح، حتى دون أن أبحث عنها بقصد مسبق.

أنا أعتزف باحتمال وقع المفاجأة عند الجميع بعد أن عُيِّبَ الجسد واستبعد عند أغلب ناسنا، وليس فقط عند هذين الفريقين، بل إنه يحيل إلى أحيانا أن حضور الجسد في مجال المعرفة - مثلما هو في سائر مجالات الحياة - أصبح من المحظورات عند أغلبنا.

أكاد أَرصد أن الخلاف بين الفريقين ليس:

- في النظر إلى نوعية الوجود الإنساني ولا في طبيعة الانتماء للحياة،
- ولا هو في فرص إطلاق قدرات الإبداع المحدودة والمختنقة عندنا جميعا
- كما أنه ليس في فرص تحريك مسار التطور أو فتح باب الاجتهاد،

ذلك أن الفريق الأول سرعان ما يجد نفسه حبيس إحدى المنظومات الأيديولوجية الحكيمة (وأشهرها 'أيديولوجية' ما يسمى العلم)

أما الفريق الثاني فهو قابع في هناء فوقى داخل نصوص تفسرها نصوص من داخل النصوص دون حركية الزمن ولا مواكبة الوعي، وهو يعتمد في تفسيره على ترجمة معجمية للألفاظ التي ترده، ناسيا أن المعاجم ليست إلا تسجيل مرحلة تاريخية لتطور لغة ما، في حين أن الدين والإيمان هو كيان متجدد يتطور بتطور الإنسان في علاقته مع الكون إلى ربه.

يترب على هذا وذاك أن كليهما يضطر أن يحكم على من يخالف منهجه بالنفي والشجب الذهني، حتى لو تشابها في الطريقة والنتيجة:

الإسلامي يقول عن خصمه: علماني = مرتد،

والذهني العلمي يقول عن خصمه 'العلمي = جاهل

ومع تشابه الموقف الأساسي للإثنين، وهو أنه موقف ذهني اختزالي على حساب كلية الوجود وشمول الوعي، نكتشف أنهم بالرغم من اختلافهما الظاهري يصلان إلى نفس الغاية، وهي الاكتفاء بقشرة الوعي دون سائر الوجود

واحد تحت لافتة التمسك بمنهج (علمي) بذاته

والآخر تحت لافتة التمسك بتفسير (لفظي) بذاته.

واحد يرفع راية يسميها العلم المحكم المنضبط (دون الوعي الكلي والمعرفة الشاملة)

والآخر يرفع راية ألفاظ الدين يسميها التفسير وأحيانا الفقه (دون إيمان بإطلاق الفطرة وتجديد الإلهام)

واحد يكتفى بعضلة عقله وقد دربها بأمجدية الميكنة والتقنية والاستهلاك والرفاهية وديكورات الحياة الذهنية والنفسية (دون الجسدية) وهو يكتفى بذلك عن بقية وجوده، وبالذات عن جسده وشامل وعيه وفطرته

الأحياء- كنا "نعرف" المحيط حولنا، ونواصل مسيرة بقائنا، فتطورنا، بأجسادنا قبل أن تكون لنا عقول أصلا (بالمعنى الأحدث)

2. أننا مازلنا نحوى هذه البدايات وما تلاها في تركيبنا البشرى الحالى (هنا والآن)

3. أن الفطرة كما أوضحناها سابقا هي مرتبطة بكل استعداداتنا الطبيعية الحاضرة فينا حتى الآن مستوعبة التاريخ الطول جميعه، وأنها ليست قاصرة على مراحلنا الأولية، حتى أنني كدت أرفض تصنيفها كيانا، فضلا استيعابها حركية حيث قلت باللفظ الواحد، "انظر 6-11-2007 عن الفطرة والجسد"

"الفطرة ليست شيئا محدد أو مفهوما ساكنا" ثم قلت في محكات التحديد "الفطرة هي حركة في اتجاهها!"

فما علاقة الفطرة بالجسد

في البدء كان الجسد، الفطرة هي جسد من جسد، هي جسد ولد من جسد، يولد الإنسان على الفطرة، فالوجود البشرى يبدأ وهو يتمحور حول جسد باعتباره الوعى الأساسى الذى يفرز على قمته وعى أحدث يسمى العقل، لكن هذا الأخير لا يكون بكامل كفاءته إلا وهو متصل باصله متمحور حوله.

الحاجة إلى منهج جديد

إذا كنا نتكلم عن إضافة يمكن أن نضيفها إلى المسيرة البشرية، لنتحقق بشرا (المفتاح رقم 15) فيجدر بنا أن نبدأ من أساسيات يحتاجها الإنسان المعاصر، لا أن نستدرج إلى نفس طريقة التفكير بعضلة العقل المنفصلة عن الجسد وعن الوعى وعن الوجود الكلى

إذا أردنا أن يحتل الجسد موقعه في مركز الفطرة فلا بد لنا من أن ندرك أن علينا أن ننشئ منهجا تربويا جديدا، ننشئه إنشاء نستطيع من خلاله أن نرسي للجسد دورا محوريا في التعبير والحوار والمعرفة والعلاقة بالآخر والتوجه إلى الله، وبهذا المنهج ومن خلاله يصبح الجسد حقل معرفيا قادرا على إحياء الفطرة والإضافة إلى الوجود، ناهيك عن دور الجسد في المشاركة الدورية الإيقاعية الحيوية في منظومة الحياة الكونية،

وإني لآمل أن نهتدى كيف نجعل هذه الممارسة التربوية العملية قادرة على أن تعبر الفجوة بين الروح فالجسد، إذ تتجاوز هذه الثنائية الحادة، بينهما.

أمثلة محددة

الآن جاء وقت تقديم أمثلة محددة في اتجاه ما أردت إيضاحه:

أعترف بداية أنه لا يخفى على ما أنا بصده وأنا أخاطب بلغة العقل التى أحاول أن أحجمها في حجمها المحدود، أخاطب بها عقولا تترجمت على ما هو ليس فطرة مجال، لأحاول أن أصل إلى لغة أخرى بمنهج آخر، نعم، صعب أن أقدم هذا المفهوم

لقارئ يعيش في مجتمع لم يعد يستعمل جسده إلا للغذاء والإخراج والتناسل واللذة المغتربة، وأحيانا للعرض والزينة وقتل الآخرين على حلبات الملاكمة أو في حوار سياسى بين مسدسات السلطة وعربات الإرهاب المفخخة

ولكن لا مفر من المحاولة .

لتكن البداية بعرض ثلاثة أمثلة تحدد موقع الجسد من المعرفة والمنظومات الفكرية وحركة النمو والتناغم الكلي:

المثال الأول من الحصيلة العلمية المتاحة،

والثاني من الممارسة العملية الجارية،

والثالث استلهاما، وليس تفسيرا، من التراث

أولا: من منظور علمى

منذ لامارك والفكر التطورى يتأرجح بين إقرار وراثه بعض العادات المكتسبة واستحالة ذلك إلا من خلال طفرات تكاد تكون عشوائية يحكم استمرارها قوانين لاحقة، ودون الدخول في تفاصيل فقد ظلت المشكلة في تفسير كيف يمكن للعادات المكتسبة التي قد تغير التركيب النيوروني في الدماغ (أساسا من خلال المطاوعة النيرونية) Neural Plasticity التي تعنى إحداث تغير دائم في تركيب الخلايا العصبية الدماغية نتيجة لمؤثرات بيئية (وظاهرة البصم) Imprinting التي تحدد كيف أن سلوك النوع يظهر دون تعلم، مما يستتبع أنه انتقل بالوراثة بعد أن اكتسب للبقاء).. كيف يمكن لهذا التغير في خلايا المخ أن ينتقل إلى الخلية التناسلية المسنولة عن الانتقال إلى الأجيال التالية؟

هنا لابد من الاعتراف بأن البرمجة التي تمت بطبع السلوك بيولوجيا على خلايا المخ أساسا: هي قادرة على الانتقال من خلايا المخ إلى الخلايا التناسلية، أو هي قد طبعت في نفس الوقت على سائر الخلايا، إذ ما الذى يمنع أن يكون 'الطبع' قد تم في كل خلايا الجسد عامة؟ بما فيها الخلايا التناسلية؟ وقد عاد التقدم في علوم الوراثة والهندسة الوراثية يسمح بقبول هذا المنظور الذى لم أشك في صحته يوما من واقع الممارسة.

فالجسد - إذن- هو تركيب يمثل ويتمثل المعنى مثل الدماغ بشكل أو بآخر، ويقدر ما يتغير الترتيب النووي للجسد تأثرا بالتغير الذى حدث في خلايا المخ، يمكن أن يتغير التركيب الخلى الدماغى نتيجة لتغيرات جذرية دالة في خلايا الجسد، وهذا ما لاحظناه في المثال العملى التالى.

ثانيا: من مدخل عملى إكلينيكي

عندنا - نحن الأطباء النفسين- مرض وأمراض يكون فيها الفكر متصلبا متصلبا يجمد معه الوجود كله وذلك في شكل ما يسمى الضلال الثابت أو الوسواس القهرى، وهذا بعض التصلب المرضى.

